مقدمة

أسمى المقتنيات

قبل مائة سنة مضت، قصَّ جون راسكين John Ruskin حكاية رجل صعد على متن سفينة وهو يحمل كل ثروته في كيس كبير مملوء بالقطع النقدية الذَّهبية. وبعد بضعة أيام من بداية الرحلة هبَّت عاصفة هوجاء وانطلق الإِنذار داعياً إِلى هجر السفينة. صعد الرجل إِلى سطح السفينة وهو يربط الكيس حول خاصرته ثم قفز من الحافة ليغوص إِلى قاع البحر مباشرة. ويتساءل راسكين: «في تلك اللحظات التي كان فيها الرجل يغوص باتجاه القاع، هل هو الذي كان يمتلك الذَّهب أم أن الذَّهب هو الذي كان يمتلكه؟...»[1].

يحكي هذا الكتاب كيف ترك الناس قطعاً من معدن تدعى الذَّهب تُسكرهم، وتستحوذ عليهم، وتأسرهم، وتذلّهم وتُحلّق بهم بعيداً في الخيال. لقد حرَّك الذَّهب مجتمعات بأكملها، وقضى على اقتصاديات وحوَّلها إِلى أشلاء، وحدَّد مصائر الملوك والأباطرة، وكان الملهم لأروع الأعمال الفنية كما حرَّض الناس بعضهم على بعض لارتكاب أفظع الجرائم، وجعل الرجال يتكبَّدون المشاق أملاً بالعثور على ثروة سريعة للتخلّص من الفاقة والقلق.

«يا لروعة الذَّهب، من يمتلك الذَّهب يمتلك كنزاً باستطاعته مساعدة الأرواح في الدخول إلى الفردوس»[2]. تلك كانت كلمات كولومبوس أثناء رحلته الأولى إلى أمريكا. وبما أن جمال الذَّهب الذي يتألَّق كالشمس، ولا يخبو، فقد رأى الناس فيه ملاذاً يحميهم من العتمة التي تتربّص بهم. ورغم ذلك نرى أن مفارقة راسكين تبرز أمامنا في كل لحظة لتتحدَّانا من جديد. وسواء تعلّق الأمر ببيرسيوس وهو يبحث عن الجِزّة الذَّهبية، أَو اليهود وهم يرقصون حول العجل الذَّهبي، أَو كروسيوس وهو يداعب العملات الذَّهبية، أَو كراسوس وهو يُقتل بصب الذهب المصهور في حلقه، أَو بازيل بولغاروكتونوس الذي كان بحوزته ما يزيد على مائتي ألف جنيه ذهباً، أَو بيزارو وهو محاط بالذَّهب عندما قام أتباعه بذبحه، أَو سوتر، صاحب الجدول الذي أشعل حمى الذَّهب في كاليفورنيا، أَو القادة المعاصرين من أمثال شارل ديغول ممن خدعوا أنفسهم برؤية اقتصاد مستقر وراسخ ومتفوّق عن طريق اقتناء الذَّهب ـ كل أولئك كانوا يمتلكون الذَّهب، بَيْدَ أنّ الذَّهب هو الذي امتلكهم جميعاً!

عندما قام بندار Pindar في القرن الخامس قبل الميلاد بوصف الذَّهب بأنه «طفل زيوس Zeus، لا يستطيع العثُّ ولا الصدأ افتراسه، لكن بإمكان هذا المُقتنى الأسمى افتراس عقل الإنسان» فإنَّه لخَّص القصة بكاملها بجملة واحدة[3]. في سنة 1848 أعاد جون ستيوارت ميل صياغة الفكرة ذاتها ببراعة عندما كتب «يمكنك لمس الذَّهب بأمان، لكنه إذا التصق بيدك فسيجرحك في الصميم»[4]. والواقع أن الذَّهب هو كتلة من المتناقضات. يعتقد الناس أنَّه الملاذ لدرجة أنَّهم يأخذونه على محمل الجد، وعندها يتحوَّل إلى لعنة.

لقد جالت الأمم في الأَرض بحثاً عن الذَّهب حتى تتمكَّن من السيطرة على الآخرين، لتكتشف فيما بعد أن الذَّهب قد هيمن على مصيرها هي. عند

نهاية قوس قزح، يبدو الذهب وكأنَّه السعادة المطلقة، أَمَّا في أعماق المنجم فيبدو كما لو أَنَّه ينبثق من الجحيم. لقد كان الذَّهب هو الملهم لبعضٍ من أعظم الإنجازات البشرية لكنه كان أيضاً المحرِّض وراء أشنع جرائمها. عندما نستخدم الذَّهب لنرمز إِلى الأبدية، يسمو بالبشر إِلى منزلة رفيعة ـ النبالة، الدين، اللياقة، أَمَّا عندما نعتبر الذَّهب هو الحياة الأزلية، فهو يدفع بالبشر نحو الموت.

تكمن أَكثر تناقضات الذهب غموضاً في المعدن نفسه. فهو معدن مطواع بحيث يمكن تشكيله بأية طريقة ترغب بها، فحتى أَكثر الأقوام بدائية كان بمقدورها صنع قطع بديعة من الذَّهب. وبالإِضافة إِلى ذلك، فإِن الذَّهب غير قابل للفناء. وبإِمكانك أن تصنع منه وأن تصنع به ما تشاء، ولكن ليس بإِمكانك أن تجعله يختفي. فالحديد الخام وحليب البقر والرمل وحتى الصور التي تظهر على شاشة الكمبيوتر، كلها أشياء قابلة للتحويل إِلى أشياء أخرى شديدة الاختلاف عن الحالة الأصلية بحيث لا يمكن التعرّف عليها. أَمَّا بالنسبة للذهب فالوضع يختلف. حيث تتبدَّى نفس المزايا في كل قطعة منه. فالذَّهب في الأقراط، وفي الهالة المرسومة على اللوحة الجدارية، والذَّهب الذي يكسو قبة المجلس التشريعي في ماساتشوشيتس، والنقاط الذهبية على خوذات لاعبي فريق نوتردام، والسبائك الذهبية المحفوظة في المخابىء الأمريكية الرسمية في فورت نوكس جميعها مصنوعة من المادة ذاتها.

ورغم حالات الهوس المعقدة التي كان الذهب وراءها، إِلاَّ أَنَّه بسيط من حيث الجوهر لدرجة تبعث على الدهشة. إِن رمزه الكيميائي AU مشتق من كلمة AURORA التي تعني «الفجر المتألِّق»، ولكن رغم الروعة التي يوحي بها هذا الرمز، يبقى الذَّهب عنصراً خاملاً كيميائياً مما يفسِّر سرّ تألّقه. وفي

القاهرة، يمكنك أن ترى جسر أسنان مصنوع من الذهب لشخص مصري قبل 4500 سنة وما يزال بحالة جيدة بحيث يمكنك استعماله الآن. والذهب كثيف بشكل استثنائي، فالقدم المكعب منه يزن نصف طن. وفي سنة 1875 لاحظ الاقتصادي الإنكليزي ستانلي جيفونز أن العشرين مليون جنيه التي يجري تداولها يومياً في الصفقات في غرفة المقاصة في لندن، كانت لتزن 157 طناً لو أنَّها كانت تُدفع بالعملات الذهبية «وكانت لتتطلب ثمانين حصاناً لنقلها»[5]. وتعني كثافة الذَّهب أن كمية صغيرة جداً منه يمكنها أن تقوم بدور نقد من الفئات الكبيرة.

والذَّهب ليِّن كالمعجون. فالذَّهب الموجود على المصنوعات الزجاجية الفينيسية جرى طرقه إلى سماكة لا تتجاوز خمسة من المليون من البوصة ـ وهي عملية تُعرف باسم الطلاء بالذَّهب. وقد استُخدمت عملية الطلاء بالذَّهب هذه استخداماً مبتكراً لم يسبق له مثيل من قِبَل الملك بطليموس الثاني ملك مصر (285 ـ 246 ق م) عندما جعل دباً قطبياً من حديقة الحيوان الخاصة به يسير في مقدمة موكب احتفالي خلف مجموعة من الرجال يحملون تمثالاً مطلياً بالذهب بطول 180 قدماً(*)[6]. وبإمكانك سحب أونصة من الذَّهب وتحويلها إلى سلك بطول خمسين ميلاً، أو بإمكانك، إذا أردت، طرْقها لتتحوَّل إلى صفيحة تغطي مساحة تبلغ مائة قدم مربَّع[7].

وبعكس أي عنصر آخر على سطح الأرض، لا يزال القسم الأعظم من الذَّهب الذي تم تعدينه متواجداً حالياً، ونرى الكثير منه في المتاحف يزخرف التماثيل القديمة وأثاث تلك التماثيل، أو معروضاً بشكل قطع نقدية، كما نرى

(*) كيف أمكن لفرعون مصري أن يحصل على دب، وقطبي أيضاً، قبل مائتي سنة من ميلاد المسيح؟ . . . يستشهد المصدر بالكاتب اليوناني المعاصر له أثينايوس الذي نشأ في مصر.

بعضه على صفحات المخطوطات المزينة بالرسوم، وبعضه الآخر بشكل سبائك برَّاقة مخبأة في الأقبية المعتمة للمصارف المركزية، كما نرى الكثير منه على الأصابع والأذان وفي الأسنان. وهناك تلك البقية الباقية التي ترقد بهدوء داخل حطام السفن في أعماق البحار. وإذا جعلت من كل ذلك الذَّهب كومة واحدة بشكل مكعّب صلب تستطيع وضعه على متن إحدى ناقلات النفط المعاصرة الضخمة[8] يكون وزنه الإجمالي ما يقارب ال 125,000 طنّ[9]، وهو مقدار ضئيل تستطيع صناعة الفولاذ الأمريكية إنتاجه في بضع ساعات فقط، فبإمكان هذه الصناعة إنتاج 120 مليون طن سنوياً. تبلغ قيمة طن الفولاذ 550 دولاراً ـ أي 2 سنت للأونصة ـ أمَّا كمية 125,000 طن تقريباً من الذَّهب فتبلغ قيمتها تريليون دولار بالأسعار الحالية(*).

ألا يبدو ذلك غريباً؟ . . . فنحن نستطيع أن نبني من الفولاذ أبراج المكاتب وأن نصنع السفن والسيارات والحاويات والآلات من كل الأنواع، أمَّا من الذَّهب، فإننا لا نتمكَّن من بناء أي شيء ومع ذلك فإنَّنا نعتبر الذَّهب هو المعدن الثمين. ونتوق للذهب ونتثاءب مللاً أمام الفولاذ. وبعد أن يصدأ كل الفولاذ ويصيبه البلى، وإلى الأبد، سيبقى مكعب الذهب محتفظاً بمظهره وكأنَّه ما يزال جديداً. تلك هي الحياة المديدة التي تداعب أحلامنا جميعاً.

إذاً فالمقاومة العنيدة للتأكسد والكثافة غير العادية والطواعية للطرق ـ هذه الخاصيات الطبيعية البسيطة هي التي تفسِّر الصبغة الرومانسية للذهب (حتى كلمة Gold بحد ذاتها لا تتضمَّن ما يثير الخيال، فهي مشتقة من كلمة إنكليزية

(*) في معظم الأمثلة التي استشهدت بها، قمت بمعايرة أوزان الذهب بالطن المتري، رغم أن العادة المتبعة هي في استخدام ملايين الأونصات. ليس من الصعب إدراك فكرة بضعة آلاف من الأطنان ـ مهما عظم الرقم ـ بينما لا تنقل فكرة ملايين الأونصات الكثير من المعنى.

قديمة: Geol، وتعني «أصفر» هذه التركيبات الكيميائية البسيطة تكشف جمال الذَّهب الذي اختاره «يهوه» وجعله لتزيين تابوت العهد، فقد أمر موسى على جبل سيناء قائلاً: «وتغشيه بذهب نقي، من داخل ومن خارج تغشيه، وتضع عليه إِكليلاً من ذهب حواليه»[10]. كانت تلك مجرد بداية: فقد أمر الرب بأن يكسو الذهبُ الخالص حتى الأثاث والقطع المثبّتة والعناصر الزخرفية كتماثيل الملائكة.

صدرت تلك الأوامر قبل عدة آلاف من السنين. فما هي مكانة الذَّهب في عالمنا المعاصر الذي يحفل بالفن التجريدي وثياب الجينز المصنوعة من قِبَل كبار المصمِّمين واستراتيجيات التأمين المعقَّدة والنقد المتداول عن طريق الكومبيوتر ومتاهات الإِنترنت؟... هل يحمل الذَّهب أي معنى في عصر تتداعى فيه التقاليد والشكليات الرسمية باستمرار بحيث يتعذَّر التعرّف عليها؟... وفي ظل اقتصاد عالمي تزداد فيه سيطرة المصرفيين المركزيين والمؤسسات الدولية، هل ما زال الذهب يتمتَّع بالأَهميَّة نفسها؟...

إِن مرور الزَّمن وحده سيكشف لنا إِن كان الذَّهب قد انتهى تماماً كذخيرة لقيمة النقد، ولكن هناك شيء واحد لا يتطرَّق إِليه الشك: إِن دوافع الجشع والخوف ومشاعر التوق إِلى القوة وإِلى الجمال، التي حرَّكت القصص التي تلت تلك الدوافع والمشاعر، ما تزال حيَّة وفعالة في اللحظة الراهنة. وبالتالي يمكن القول: بأن قصَّة الذَّهب هي قصة عصرنا الحالي بقدر ما هي حكاية من حكايا الماضي. فمن الملك المسكين ميداس الذي دمّره حب الذهب إِلى علي خان الذي كان يوزع سنوياً مقدار وزنه ذهباً، ومن المناجم الرطبة في جنوب أفريقيا إِلى الأقبية فائقة النظافة في فورت نوكس، ومن الأعمال الفنية البديعة لشعب سكايثيا إِلى معابد قبائل الأَنكا، ومن الأسواق الشعبية في البنغال إِلى الأسواق

المالية في مدينة لندن، يعكس الذَّهب سعي البشر وراء الحياة الخالدة ـ وراء اليقين المطلق والنجاة من الخطر.

إن الفكرة الرئيسية في الحكاية بأكملها هي تلك المفارقة الساخرة في أنَّه لا يمكن حتى للذهب تحقيق هدف ذلك السعي. فالناس مثلهم كمثل مسافر راسكين الذي قفز من السفينة، يأخذون رمز الذَّهب على محمل الجد إلى حد كبير ويقومون، وقد أعماهم بريقه، بالتخلي عن أنفسهم في سبيل وهم.

إن تتابع الفصول الآتية يكاد يكون زمنياً إلى حدّ ما، لكن القصة ليست تأريخاً كاملاً للذهب ولا تحليلاً شاملاً لدوره في الاقتصاد والثقافة، رغم كثرة التفاصيل المتعلِّقة بتاريخ المال والمصارف. وقد قمت، عوضاً عن ذلك، بالتحري عن تلك الأحداث والقصص المتعلِّقة بالذَّهب والتي جذبتني أكثر من غيرها لأنها تُظهر مدى اليأس والإحباط اللَّذين أثارا السلوك البشري. وتبدأ القصة بالخواص السحرية والدينية للذهب ليتابع التاريخ مسيرته وصولاً إلى تحوّل الذَّهب إلى نقد. وخلال مسيرة هذا التحول لن تفوتنا ملاحظة المزايا السحرية للذهب أو مفارقات تأثيره على البشرية.

آمل أن تقدم المواد التي اخترت أن أضعها في الكتاب توضيحاً للقارىء، وربّما أغاظته أحياناً، بشأن الكيفية التي قام بها ذلك الافتتان والهوس والعدوانية، الناتجة عن ذلك المعدن الغريب والفريد، بصياغة المصير البشري عبر العصور.